مجلة (لغة – كلام) تصدر عن مخبر اللغة والتواصل- جامعة غليزان / الجزائر
ISSN : 2437-0746 / EISSN: 2600-6308
رقم الإيداع: 2015 - 3412
مصنفة ج : قرار 1432 بتاريخ 2019/08/13
http://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/176
المجلد 09/ العدد: 01 / جانفي (2023) - ص 218-235

رؤية مزدوجة في وصف كتاب سيبويه

A double vision in the description of Sibawayh's book

بعزيز سلاف
Baaziz-soulef@univ-eloued.dz
جامعة الشهيد حمه لخضر، الوادي/الجزائر

تاريخ الاستلام: 2022/09/05 تاريخ القبول: 2022/12/21 تاريخ النشر: 2023/01/10

ملخص البحث:

تسعى هذه الورقة البحثية إلى عرض توجهين من ثقافتين مختلفتين –عربية وأجنبية- في وصف أول مصنف في أبنية الكلام العربي لإمام النحو حجة العرب أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر الفارسي ثم البصري الملقب بـ "سيبويه" ومحاولة تقييمهما وبيان الفروق بينهما .

الكلمات المفتاحية: رؤية مزدوجة، وصف، الكتاب، سيبويه

ABSTRACT:

This research paper seeks to present two approaches from two different cultures - Arab and foreign - in describing the first work on the structures of Arabic speech by the imam of grammar, the argument of the Arabs, Abu Bishr Amr bin Othman bin Qanbar al-Farsi, and then al-Basri, nicknamed "Sibawayh" and try to evaluate them and clarify the differences between them.

Keywords: A double vision, description, book, Sibawayh

مقدمة:

حظي كتاب النحوي البصري سيبويه ومازال بعناية علماء عصره ، ومن جاء بعدهم ، عربا وأعاجم ، قديما وحديثا ، بوصفه المصنف الأول في تاريخ علوم اللغة العربية الذي لا ينازعه فيه غيره، ولا يلحقه مَنْ بعده ، ضم بين دفتيه مختلف القضايا والمباحث النحوية والصرفية والصوتية للسان العربي ،تميز في عرضه بضبط الحدود والمفاهيم ، وترتيب الأبواب وتصنيفها ، والتمثيل والقياس والاستشهاد ، وقوة التحليل والاستنباط ، وحسن التعليل .الأمر الذي أدى بالعلماء إلى الاعتزاز بكل ما ورد فيه "إلى حد يكاد يبلغ القداسة"[1].

ولئن انشغل علماء اللغة القدامى بتقديم الشروحات لمتنه وشواهده ، ومناقشة آرائه النحوية ، والتعقيب أو الاعتراض عليها أحيانا ، فإن بعض الباحثين المحدثين من العرب وغير العرب يستظهروا الأسس المنهجية للوصف السيبويهي لنظام اللغة العربية ، والتأصيل النظري لها ، وتحديد دورها في النظرية اللغوية ، والبعض الآخر من الدارسين حاول بيان هذه الأسس في ضوء معارف العصر[2] .

ومن البعض الأول ، والبعض الثاني ، تتشكل قراءة ثنائية واصفة للمنجز السيبويهي ، تجتمع فيها النظرية النحوية العربية في رؤية عالم اللغة شوقي ضيف ، ومكانة الكتاب في الدرس اللغوي العالمي المعاصر في نظرة كيس فيرستيج ، فكيف صور ونعت "الكتاب" وفق هذين الوصفين ؟ و ما القراءة الواصفة لكتاب سيبويه التي يمكن لطالب العلم والباحث اللغوي اعتمادها ؟

أولا :الرؤية الأولى :الوصف العربي

يمثل الوصف العربي الأديب والعالم اللغوي المصري شوقي ضيف (1910/2005م) الذي نظر إلى سيبويه (148-180 هـ/ 765-796 م) باعتباره علما من أعلام مدرسة البصرة النحوية ، ومؤسسا وفيا للآراء أستاذه الخليل بن أحمد الفراهيدي النحوية ، ومؤلفا لـ "قرآن النحو" –الكتاب- وفق منهج سديد في تصنيف وتنسيق أبوابه بلغ فيه حد الإعجاز ؛ ذلك لأنه تجاوز وضع أصول النحو وقوانينه إلى الإلمام بظواهر التعبير العربي عمقا وعلما وتفسيرا .

بدأ اللغوي المصري **شوقي ضيف** الحديث عن إمام النحو سيبويه في مقدمة كتابه أولا، فهو الذي خَلَفَ أستاذه الخليل ، ومثل آراءه النحوية تمثلا غريبا رائعا ، نافذا منها إلى ما لا يكاد يُحصى من الآراء ، فإذا هو يسوي من ذلك الكتاب آيته الكبرى ، وقد بلغ من إعجاب الأسلاف به أن سموه "**قرآن النحو**" وكأنما أحسوا فيه ضربا من الإعجاز ، لا لتسجيله فيه أصول النحو وقواعده تسجيلا تاما فحسب ، بل أيضا لأنه لم يكد يترك ظاهرة من ظواهر التعبير العربي إلا أتقنها فقها وعلما وتحليلا[3].

ثم خصص "**الفصل الثالث**" من القسم الأول "**المدرسة البصرية**" في مصنفه "**المدارس النحوية**" الإمام النحو"**سيبويه**" باعتباره علما من أعلام البصرة -ربما لأن تقديمه قد ورد في المقدمة العامة للكتاب وأغنى عن إعادته في الفصل- ، وأدرج ضمنه عناوين فرعية دون تقديم ولا تمهيد، كما يأتي :

خطاطة 1

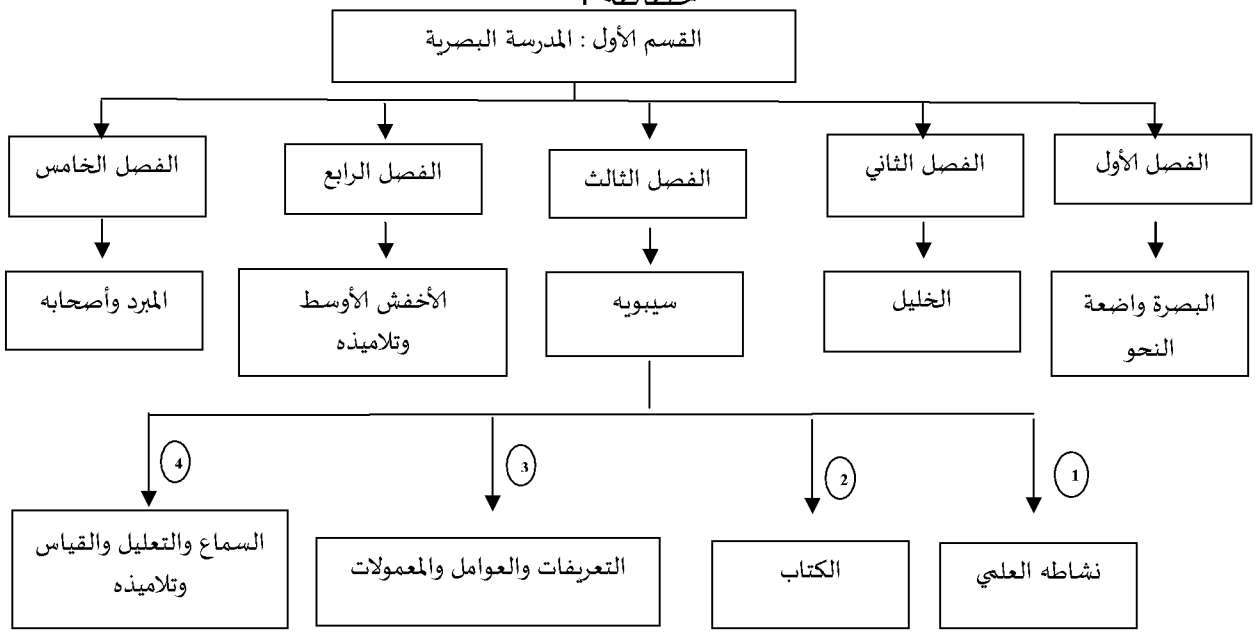

1- **نشاطه العلمي** : استهله بالحديث عن لقبه ، ونسبه ، ومولده وتعلمه من الثقافة الدينية إلى حلقات اللغة والنحو، وملازمة أستاذه **الخليل بن أحمد الفراهيدي** (175/100 هـ) وتدوين ملاحظاته ونظراته النحوية والصرفية، وأقوال العرب وأشعارهم[4] .

بعد وفاة الخليل خلفه حلقاته ، وانكب بعدها في تصنيف "**الكتاب**"، و بدأ نجمه يتألق في دار النحو (البصرة) وخارجها، وفي حاضرة الدولة "**بغداد**" حدث لقاؤه بمقرئ الكوفة "**الكسائي**" (189/110 هـ) في دار **يحي البرمكي**، ووقعت المناظرة في "**المسألة الزنبورية**" التي أرجعته إلى موطنه متحسرا، وتوفي بعدها سنة 180 للهجرة[5] .

خطاطة 2

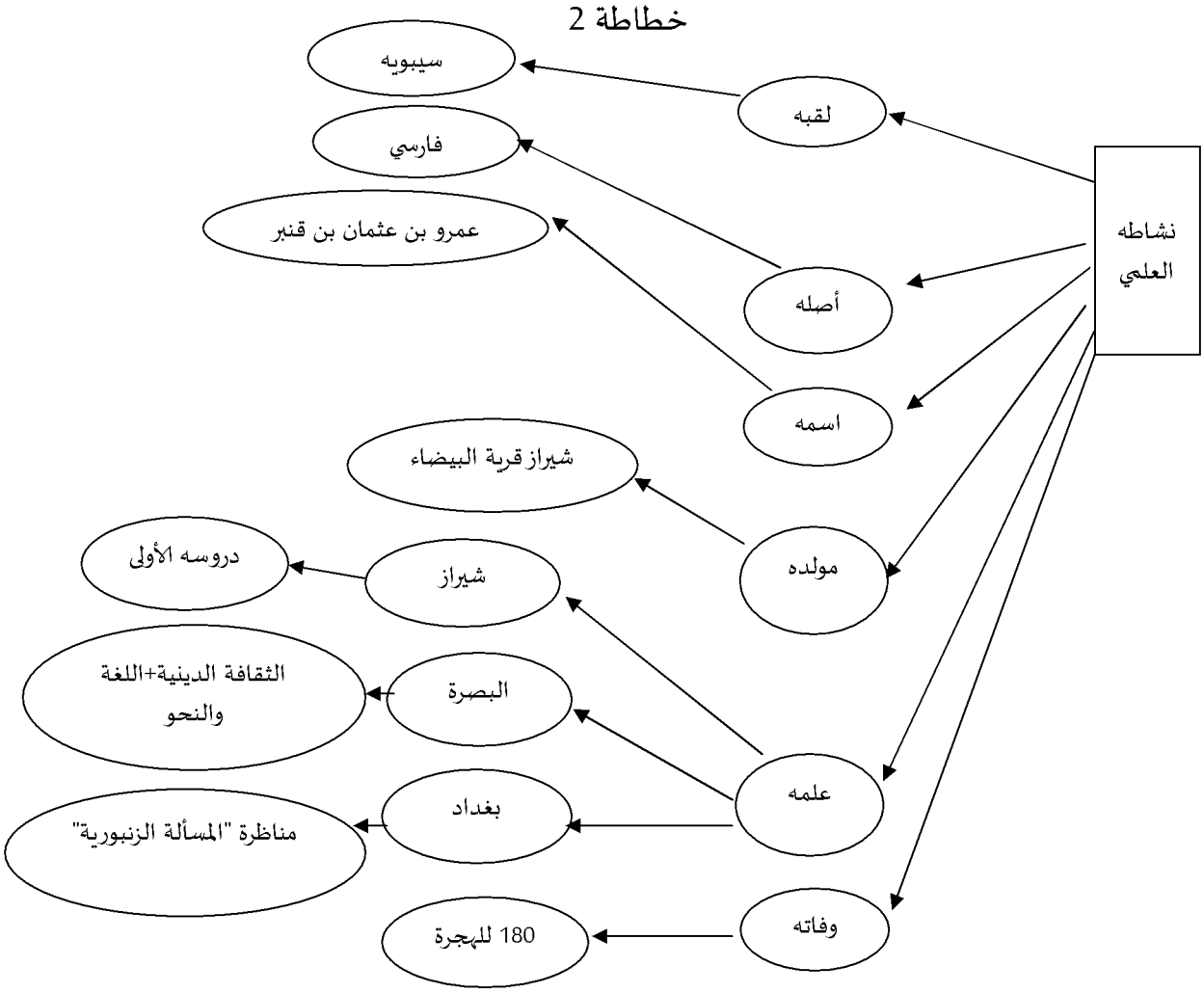

2- **كـــتابه** : تاريخ تأليفه كان بعد وفاة أستاذه الخليل؛ لأنه تضمن إشارات إلى ترحمه عليه، حمله عن سيبويه تلميذه **الأخفش الأوسط سعيد بن مسعدة** (ت 211 ه) وأطلق عليه "**الكتاب**" فاشتهر وذاع صيته بتلك التسمية، وكثرت الإشادة ومدح – أهل العلم حتى إنه وُصف بـ "**قرآن النحو**"، و لم يسبقه غيره إلى مثل هذا التأليف الشامل[6].

لم يضع النحوي البصري سيبويه كتابه بمقدمة وخاتمه؛ واستهله بهذا العنوان: "**هذا باب علم الكلم من العربية** " : تحدث فيه عن أقسام الكلمة: اسم وفعل وحرف، وفي نهاية الكتاب حديثه ينقطع عند بيان حذف بعض العرب لحروف في بعض الأبنية تخفيفا على اللسان .

جعل سيبويه كتابه في قسمين كبيرين، أما **القسم الأول** فخصه بالنحو ومباحثه جميعها(في الجزء الأول من الكتاب وأوائل الجزء الثاني). وبسط في **القسم الثاني** المباحث الصرفية بشكل مفصل وإحاطة تامة موصولة بمادة صوتية واسعة ، كما تميز بكثرة المصطلحات النحوية والصرفية التي لا تزال شائعة إلى غاية عصرنا، وفي ذلك يعود له الفضل[7].

خطاطة 3

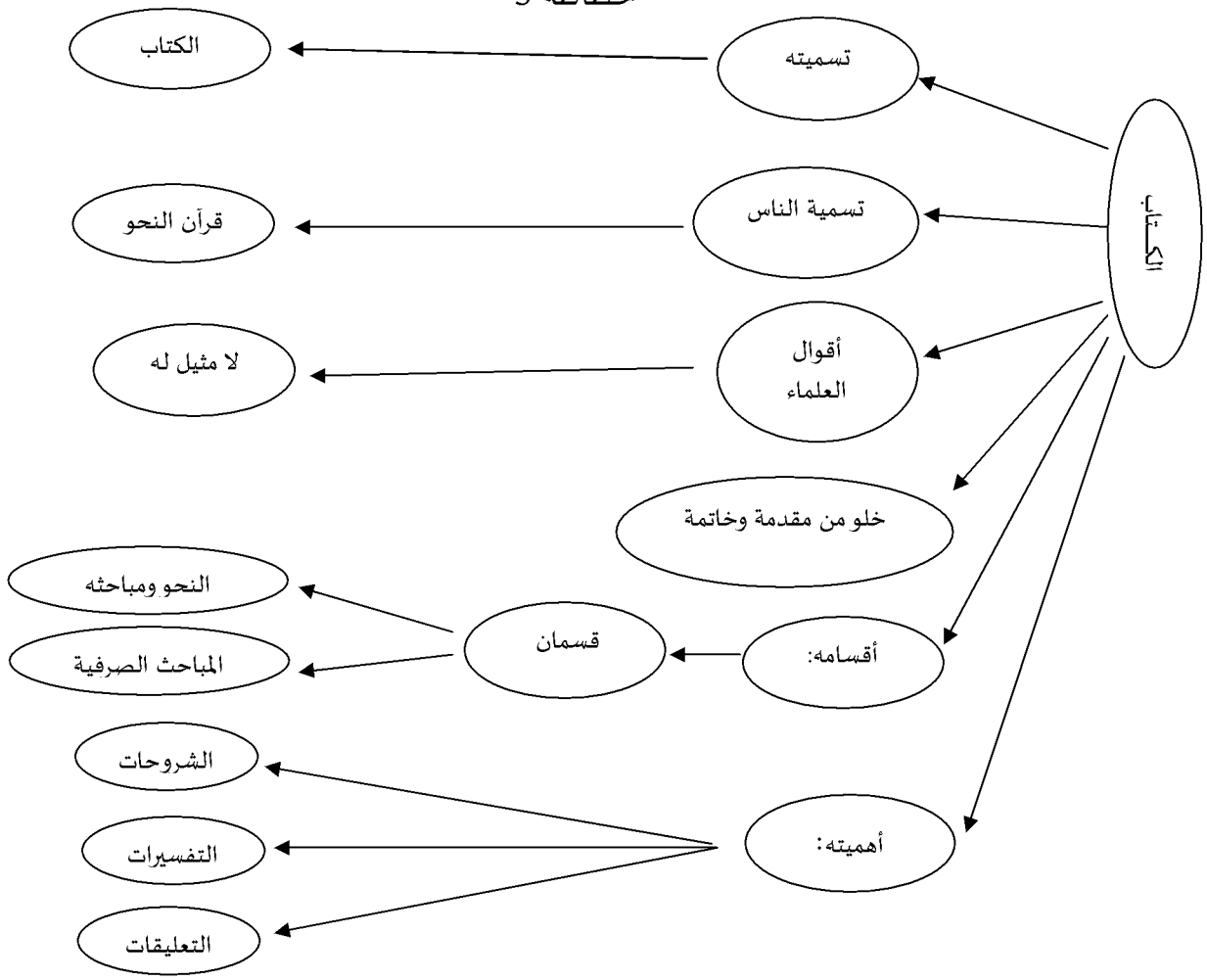

3- **التعريفات والعوامل والمعمولات** : يغلب على سيبويه أن يعنى في توضيح الباب الذي يتحدث عنه بذكر أمثلته التي تكشفه، والكثرة الغالية في أبواب الكتاب تجري على هذا النحو من تصويرها عن طريق التمثيل وذكر الشواهد، وقد يعمد إلى ذكر الأقسام المنطوي عليها الباب. وفي كل ذلك آثر سيبويه **المنهج التحليلي** الذي يعنى في تصوير الموضوع ببيان أقسامه وتفريعاته مباشرة[8] .

ومن الأمثلة على ذلك أقواله (سيبويه) :

* "الكلم اسم وفعل وحرف جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل [9].

* "هذا باب التصغير ، اعلم أن التصغير إنما هو في الكلام على ثلاثة أمثلة على فُعَيْل وفُعَيْعِل وفُعَيعيل ، مثل جبيل ، و جعيفر ، ومصيبيح "[10].

وقد يعمد سيبويه إلى **المنهج العقلي المجرد**، فيحاول أن يحد بعض ما يتحدث عنه من أبواب عن طريق التعريف الكلي الجامع[11] ، من ذلك :

* **تعريف الفعل** : "وأما الفعل فأمثلته أخذت من لفظ أحداث (مصادر) الأسماء وبنيت لما مضى ولما يكون ولم يقع وما هو كائن لم ينقطع"[12] .

* **تعريف المبتدأ** :" كل اسم ابتدىء به ليبنى عليه كلام [13]:

وتتداخل "**نظرية العوامل**"في كل أبواب الكتاب وفصوله النحوية ، وهي الأساس الذي يبني سيبويه عليه حديثه في مباحث النحو؛ فمنذ السطور الأولى في "**الكتاب**" في حديثه عن "**مجاري أواخر الكلم الثمانية**"؛ فالعامل هو الذي يحدث الإعراب وعلاماته من الرفع والنصب والجر والسكون. وقد مضى يوزع الأبواب باعتبار العوامل، وبدأ بالفعل، ووزع الأبواب الأولى على لزومه وتعديه[14].

وعلى نحو ما اتسع سيبويه في الحديث عن حذف العوامل على هدى ما قاله أستاذه الخليل في ذلك اتسع في الحديث عن حذف المعمولات[15].

وقد استفاض الدكتور **شوقي ضيف** في عرض المادة النحوية لكتاب سيبويه وتوزيعها على الأبواب بالأمثلة ، والتحليل، وبيان الطريقة التي انتهجها سيبويه في عرض نظام اللغة العربية القائم على "**نظرية العامل**" .

خطاطة 4

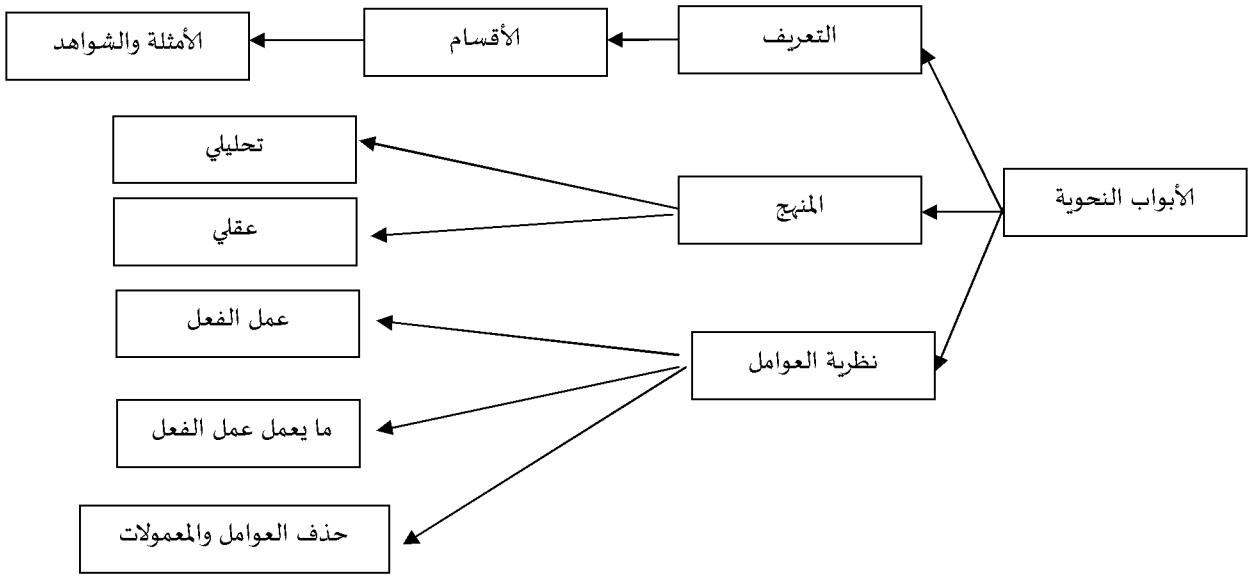

4- **السماع والتعليل والقياس** : يجري سيبويه في **السماع** على الأساس الذي وضعته مدرسته، وهو النقل عن القراء وعلماء اللغة الموثقين والعرب الذين يوثق بفصاحتهم، واستن بمدرسته في قلة الاستشهاد بالحديث النبوي لأنه روي بالمعنى لا باللفظ، ودخل في روايته كثيرون من الأعاجم الذين لا يؤمنون على اللحن[16].

استند سيبويه في "**الكتاب**" على رواية بعض تلاميذ القارئ **أبي عمرو بن العلاء** وخاصة **يونس بن حبيب**، وحمل قراءة الذكر الحكيم عن **هارون بن موسى النحوي** الذي يتردد ذكره في الكتاب مع بعض القراءات التي يرويها، وكذلك عن **أستاذه الخليل** وغيره من أئمة القراءات في البصرة لعصره مثل **يعقوب بن إسحاق الحضرمي**، ولذلك قلما يذكر القراءة التي تخالف القياس، بل عادة لا يعرض لها[17].

خطاطة 5

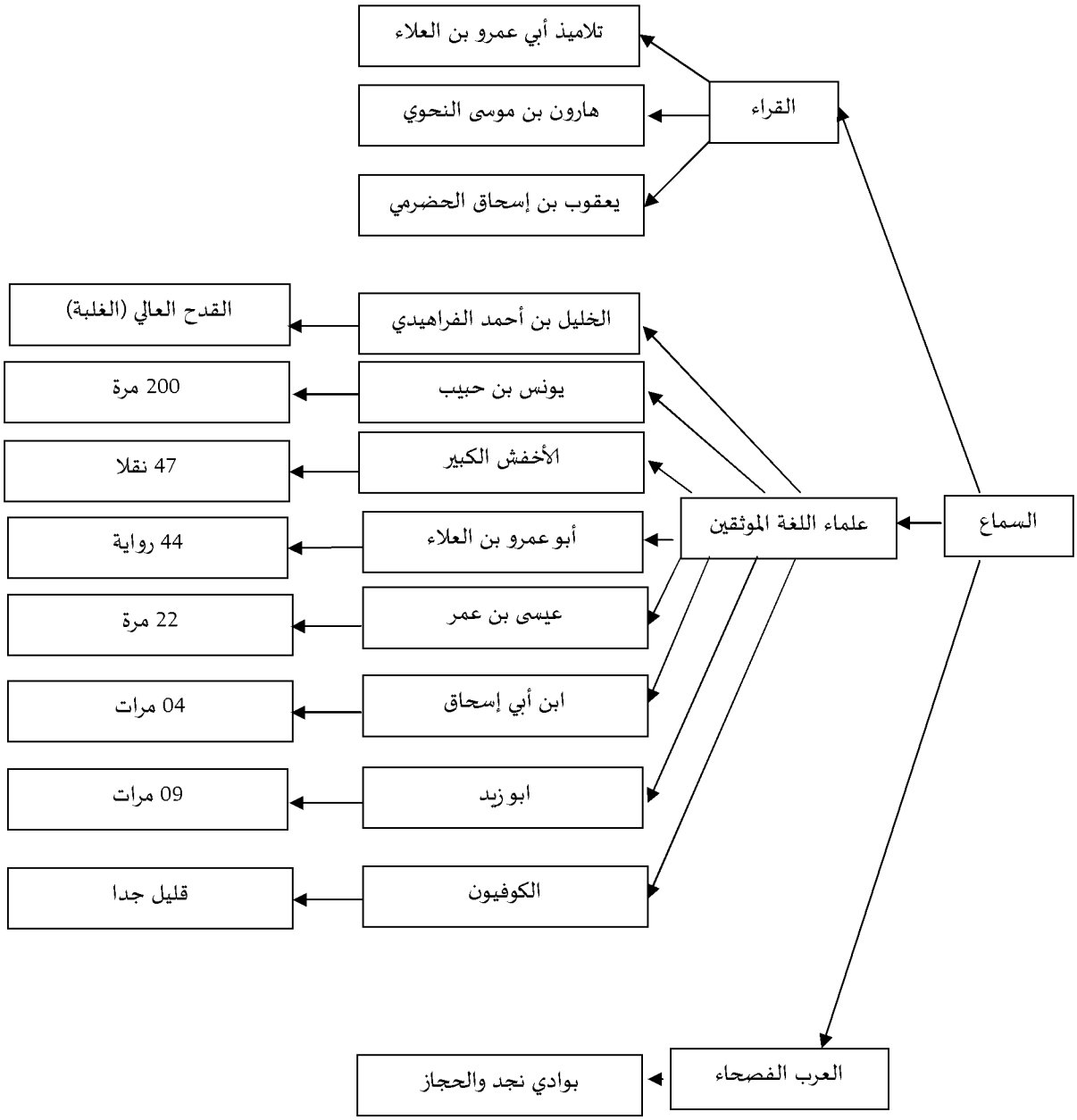

وتكثر **التعليلات** في كتاب سيبويه كثرة مفرطة، سواء للقواعد **المطردة** أو للأمثلة **الشاذة**. ولم يعلل لواقع **الاسم** فحسب، بل يعلل أيضا بما لا يجري في واقعه، مما جرى في **الأفعال** من بعض وجوه الإعراب، وبذلك **وسع التعليل فشمل ما هو واقع ولم يقع، في الأسماء وفي الأفعال جميعا**[18].

وكل **التعليلات** في الصفحات الأولى من الكتاب (حتى الصفحة السابعة فيه)؛ وبذلك ثبت سيبويه جذور التعليل في النحو والصرف ومدها في جميع قواعدهما ومسائلهما، فليس هناك شيء لا يعلل، بل لكل شيء علته يمسك بها في يمينه. وتنتشر هذه التعليلات في أكثر صفحات الكتاب، **وعلى نحو ما يتسع سيبويه بالتعليل في النحو يتسع به في الصرف، وخاصة في باب القلب والإعلال**[19].

خطاطة 6

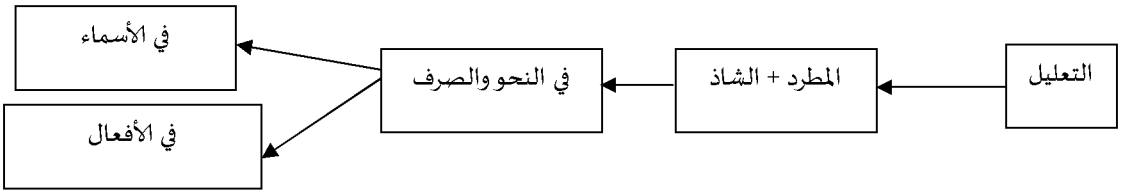

ويكثر "**القياس**" في كتاب سيبويه كثرة مفرطة؛ لأنه الأساس الذي يقوم عليه وضع القواعد النحوية والصرفية واطرادها، وهو يعتمد عنده في أكثر الأمر على **الشائع** في الاستعمال على ألسنة العرب، كما يقوم على **المشابهة** بين استعمالاتهم في الأبنية والعبارات المختلفة[20].

ومن أمثلته :

* قياس حذف العائد في النعت على حذفه في الصلة .
* قياس اسم الفاعل واسم المفعول وصيغ المبالغة على الفعل المضارع في العمل .
* قياس عمل "إن وأخواتها" على عمل الفعل المتعدي .
* قياس المصدر على الفعل في عمله ومعناه .

والصرف عنده كله **أقيسة**، وقد أظهر في حصر أبنية الأفعال والأسماء المجردة والمزيدة وما يقابلها من التفاعيل وخاصة أبنية؛ إذ أورد لها ثلاثمائة مثال (تفعيلة) وثمانية، وهو في كل مثال يبحث عن نظائره في اللغة، فإن لم يجد لكلمة مثالا أو تفعيلة ردها إلى مثال آخر قاسها عليه، من ذلك كلمة "عزويت" أي قصير، فوضع لها مثالا على وزنها، وهو " فعويل"، وقاسها على "فعليت" لوجود نظيرها في اللغة، وهو عفريت ونفريت[21].

خطاطة 7

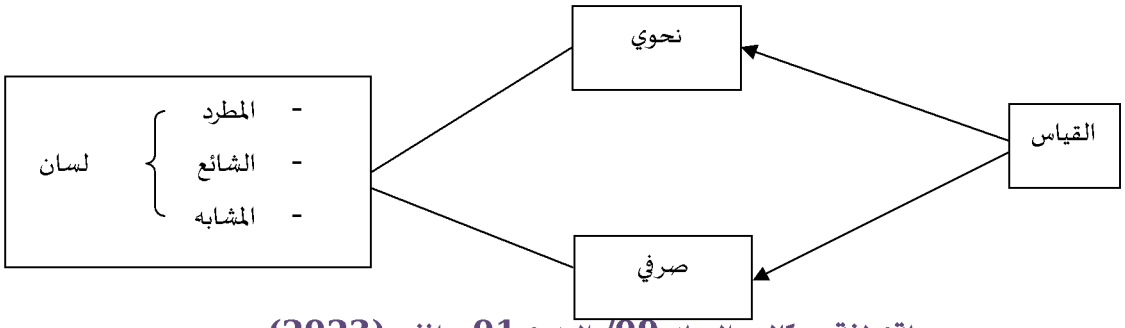

5- **آراء ومواقف شوقي ضيف في وصف "الكتاب"** : تخللت وصف كتاب سيبويه بعض الأحكام والتنبيهات الناجمة عن القراءة المتفحصة والواعية لعالم اللغة **شوقي ضيف**، حيث :

أ/ حاجة "الكتاب" إلى إضافات : ويرى مؤلف مصنف "**المدارس النحوية**" **شوقي ضيف** أن في نفس سيبويه أشياء يريد إضافتها وأخرى يريد مراجعتها : "ونحس كأنه كانت لا تزال في نفسه بقية يريد أن يضيفها إلى الكتاب. ولعل لا نبعد إذا قلنا إنه لم يأخذ الفرصة الكافية كي ينقح الكتاب ويخرجه إخراجا نهائيا "[22] ، ثم يستدرك حكمه بقوله :" وينبغي أن لا نظن من ذلك أن الكتاب لم يكفل له منهج سديد في التصنيف فقد نسق سيبويه أبوابه وأحكمها إحكاما دقيقا، وخاصة إذا عرفنا أنه أول كتاب جامع في قواعد النحو والصرف"[23].

ب/ تداخل بعض المصطلحات وغياب بعضها الآخر : بالرغم مما قدمه كتاب سيبويه من ثراء مصطلحي إلا أنه وقع بعض التداخل بينها كما حدث في باب التوابع مع "**النعت والبدل والتوكيد والعطف** ، ولجوئه في بعض الأحيان إلى عدم وضع الاصطلاح الخاص المميز كما حدث في عدم تسمية "**اسم المرة** " ، و"**اسم الآلة**"، و "**اسم المكان المشتق**" و "**فك الإدغام**" ، و"**باب التنازع**" ، و"**باب الاشتغال**" ، وباب كتابه الأول : "**هذا باب مجاري أواخر الكلم من العربية** "سماه النحاة بعده باسم "**أنواع الإعراب**"[24].

ج/ ظلال من الغموض والإبهام : وقع في مواطن مختلفة من " **الكتاب**" شيء من الإبهام والالتواء ؛ وربما يرجع ذلك في الكثير الأكثر إلى أن سيبويه كان يضع قوانين النحو والصرف وضعا مفصلا متشعبا لأول مرة .وهذا الغموض في جوانب من الكتاب كان سببا في أن يتناوله كثيرون من النحاة بالشرح والتفسير والتعليق وفي مقدمتهم تلميذه **الأخفش** وأصحابه (**الجرمي والمازني**) ، **والسيرافي** ، **والرماني** ، **والمبرد** ، **والزجاج**[25].

د/ التشدد في القياس : أفضى تشدد سيبويه في القياس إلى رفض القياس على بعض ما جاء عن العرب كثيرا، مثل: النسبة إلى "**فَعِيل**" و "**فُعِيل**" ، ورأى بإقرار الياء في النسب : **حنيف –حنيفي**[26].

ويختم لنا **شوقي ضيف** قراءته المتعمقة لكنه "**الكتاب**" بعبارات قوية ، صادرة عن باحث متمرس ومتذوق ، يقول : "وعلى هذا النحو لا يحيط سيبويه بأبنية اللغة وشاراتها النحوية فحسب، بل يمد بحثه فيهما إلى كل مظنون في التعبير وكل صيغة ممكنة، مع دعم كلامه بالأقيسة والعلل دعما لا يعلِّم به النحو والصرف فحسب بل يعلم به أيضا العقل، ويرهف الحس اللغوي عند قارئه، إذ لا يزال يعرض عليه دقائق التعبير وخصائص الأبنية عرض من أتقنها علما وفقها وتحليلا(...) وبهذا الحس المرهف وما سنده من ملكات عقلية باهرة رسم سيبويه أصول العربية وصاغ لها قوانينها الإعرابية والصرفية"[27].ويقوي **شوقي** حجته بقولة أحد أساطين اللغة العربية وجهابذتها **أبو الفتح عثمان بن**

جني (ت 392 هـ): "لما كان النحويون بالعربي لاحقين وعلى سمتهم آخذين وبألفاظهم متحلين ولمعانيهم وقصودهم آمين جاز لصاحب هذا العلم (سيبويه) الذي جمع شعاعه، وشرع أوضاعه، ورسم أشكاله، ووسم أغفاله، وخلج أشطانه، وبعج أحضانه، وزم شوارده، وأفاء فوارده أن يرى فيه نحو مما رأوا ويحذوه على أمثلتهم التي حذو، لا سيما والقياس إليه مصغ، وله قابل ، وعنه غير متثاقل "[28].

ثانيا : الرؤية الثانية : الوصف الأجنبي :

وأما الوصف الثاني : الغربي فيمثله الباحث والأستاذ في اللغة العربية والدراسات الإسلامية الهولندي "كيس فيرستيج" (Kees Versteegh /1947) ، الذي يعد سيبويه علما من أعلام الفكر اللغوي في التقليد اللغوي العربي ، وأن جهوده تتعدى بناء النحو العربي إلى وصف منظومة اللغة العربية الكاملة ، ويحاول كيس تقييم منهج سيبويه في ضوء الفكر اللغوي الغربي ببحث الغرض من دراسة كتاب سيبويه.

نشر الباحث الهولندي للغة العربية والدراسات الإسلامية "**كيس فيرستيج**" "**Kees Versteegh** " مؤلفه "**أعلام الفكر اللغوي**"، وجعل **الجزء الثالث** منه خاصا بأهم **علماء العربية** وبذلك أضاف عبارة "**التقليد اللغوي العربي**" إلى العنوان الرئيسي .

واستهل مصنفه بمقدمة للطبعة العربية تحدث فيها عن **رحلة الشاب** عام 770 للميلاد من بلاد **فارس** إلى مدينة **البصرة** رغبة في الثقافة والأدب والفن، وبسبب من أعجميته ، صحبته **لُكْنَة** واضحة أثرت في حديثه بالعربية، كما لاحظ الشيء عينه متفشيا بين العرب أنفسهم، لينذر –بذلك- نفسه لدراسة اللغة العربية، قواعد وأصولا، دراسة تبحر وإتقان، وقبل أن يبلغ **الأربعين** من عمره أضحى هذا الشاب أحد الأعلام المبرزين في هذا المجال ودون كتابا في هذا الفن لم يُسبق إليه[29] .

كان اسم هذا العالم الشاب **سيبويه** وهو اسم فارسي يعني "**شذا التفاح**" ، وكتابه أصبح يُعرف فيما بعد بـ "**كتاب سيبويه**" ويعد إنجازا فريدا في تاريخ علوم اللغة، لم يكن الكتاب مجرد وصف للغة العربية وحسب ولكنه يعد تفسيرا لقواعدها أيضا[30].

وواصل "**كيس**" الحديث عن أهمية وشهرة كتاب سيبويه حتى إنه يقال "**إن تاريخ علم اللغة العربية ما هو إلا تفسير شامل لكتاب سيبويه**"، ولكن لم يعد نموذج سيبويه مستخدما لدى علماء اللغة المعاصرين لا في النظرية اللغوية ولا في توصيف اللغة العربية ؛ لأن العولمة تضطر اللغويين إلى العمل ضمن النموذج الغربي المستمد من تقليد المدرسة النحوية الإغريقية –اللاتينية- **إذن ما فائدة دراسة التقليد النحوي العربي ولماذا ينبغي لنا أن ندرس تراث سيبويه والنحاة العرب الآخرين ؟**[31]

والجواب هو : "**أن النحاة العرب يستحقون تقديرنا –نحن علماء اللغة المعاصرين – لكونهم علماء محترفين ومستقلين بذاتهم وأن بوسعهم أن يعلموننا درسا مهما ،وهو أن علم اللغة لا**

يتعلق باكتشاف البنى الصحيحة في اللغة ولا بنماذج الصياغة وحسب بل يعبر عن الولع باللغة ، لا بل اللغات عامة"[32].

ونوجز ما ورد أعلاه في الخطاطة الآتية :

خطاطة 8

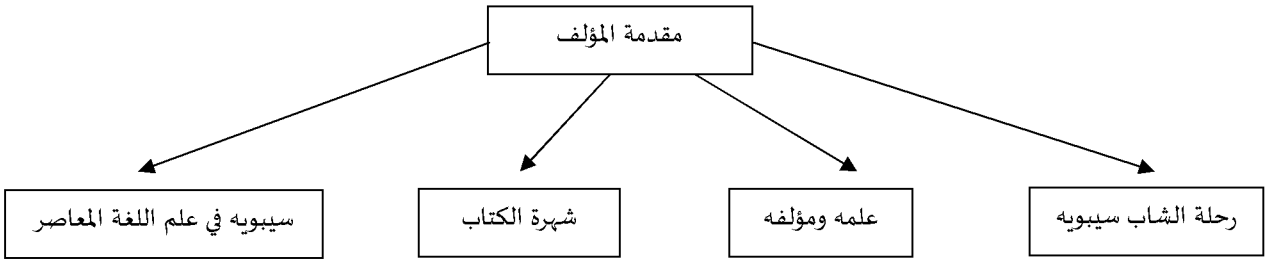

بعد هذه الإطلالة العامة ، يُلح على هذا التقديم سؤال مهم مفاده : **لماذا أفرد "كيس" تقديم أعلام العربية بشخص سيبويه دون غيره؟**

لم يكتف الباحث اللساني **كيس** بالتطرق إلى عالم اللغة الشاب الفارسي فحسب، بل تعرض في **الفصل الثالث** من كتابه "**أعلام الفكر اللغوي** "إلى جهود سيبويه في بناء صرح النحو العربي، من خلال كتابه الذي يعد **أول وصف دقيق وشامل لنسق اللغة العربية في التقليد اللغوي العربي**، ومحاولة تحليل وتقييم الصنيع السيبويهي من منظور الفكر اللغوي الغربي المعاصر، هدفا في الوصول إلى تعميق الرؤية في الفكر النحوي العربي (النظرية اللغوية).

خطاطة 9

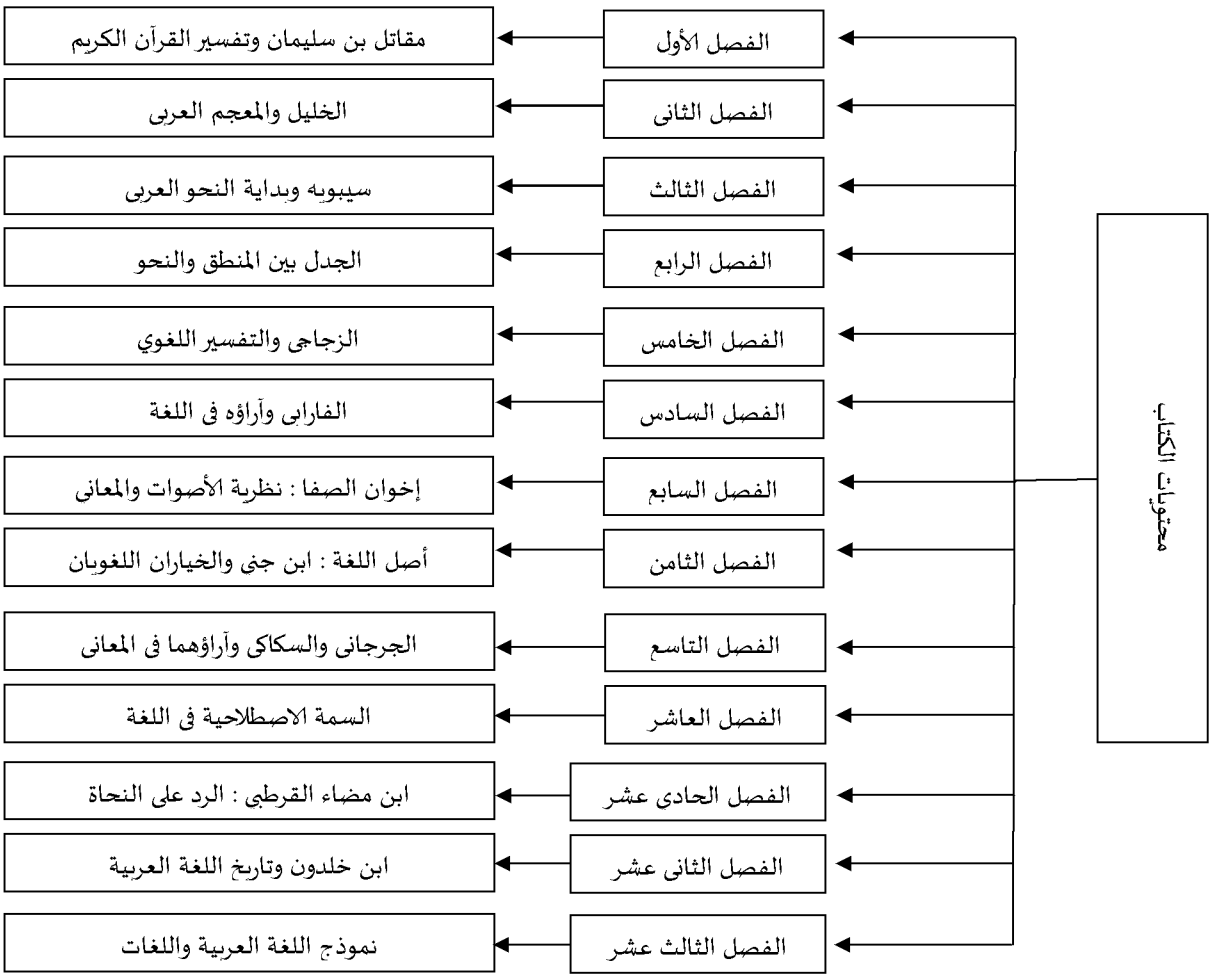

كَرَّسَ "**كيس**" الفصل الثالث الموسوم بـ "**سيبويه وبداية النحو العربي**" لمؤسس النحو العربي سيبويه(ت793 م)، وهو مؤلف "**الكتاب**" ، ويعد **أول تحليل شامل لبنية اللغة في التقليد العربي** ، وبقي النموذج والمصدر على مر العصور ، وتعرض المواضيع الرئيسية في هذا الفصل المبادئ العامة للنحو كما يقدمها سيبويه في الأبواب الأولى من الكتاب والنواحي المنهجية في طريقة دراسته علم اللغة[33].

واستهل "**كيس**" الفصل بمقتطفات واقتباسات من كتاب سيبويه شملت بابين، هما :"**باب علم ما الكلم من العربية**" و "**باب مجاري أواخر الكلم من العربية** "، ونقل مضمونهما نقلا حرفيا دون تصرف بحذف أو زيادة، مع الإشارة إلى مصدرها : سيبويه، الكتاب ، طبعة بولاق ، جزءان ، 1316 هجرية، طبعة معادة بلا تاريخ، بغداد ، مكتبة المثنى ، الجزء الأول ، ص 2-4.

ويسجل بعدها أن هذه المقطوعة الطويلة هي بمثابة تقديم للفصل ، وهي مأخوذة من الصفحات الأولى لأكثر الكتب شهرة في التقليد اللغوي العربي والذي لا ينازعه غيره المعروف بـ "**كتاب سيبويه**" والملقب بـ "**قرآن النحو**" وصاحبه بـ "**إمام النحو**" ، مما جعله –بدون مبالغة- يحكم على أن التقليد

اللغوي باللغة العربية برمته ليس فيه شيء سوى **الشروحات الموسعة لكتاب الشخصية الأسطورية سيبويه** ، كما هو الشأن في التقليد السنسكريتي (الحضارة الهندية)[34]. بعدها بدأ "**كيس**" بإعطاء نبذة عن حياة سيبويه شملت : اسمه ، ومولده ، وكنيته ، وعلمه ، ثم وفاته . كما توضحه الخطاطة الموالية :

خطاطة 10

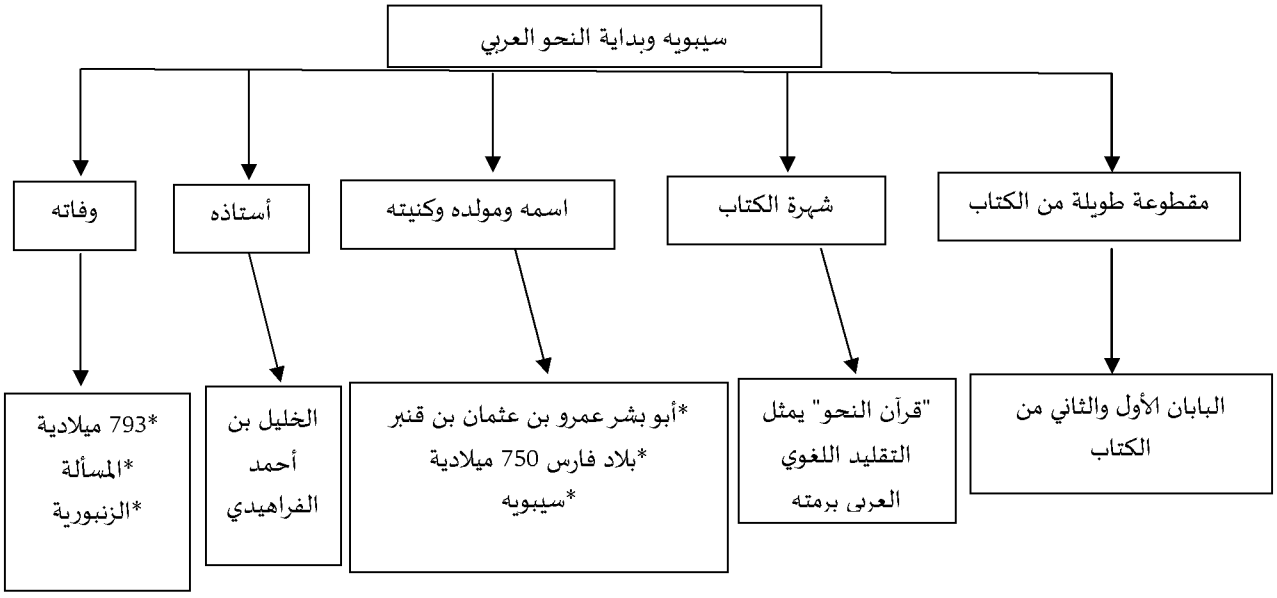

انتقل "**كيس**" في الفقرات الموالية للحديث عن كتابه مبينا تميزه وتفرده لأمرين : **الأول** ، كونه **أول وصف متماسك لمنظومة اللغة العربية** كاملة .**والثاني** ، بوصفه **واحدا من أوائل الأسفار الحقيقية المنشورة في أدبيات اللغة العربية وفي العصور الأولى للحضارة الإسلامية** ويعود الفضل في ذلك لتلميذه **المبرد** (ت 898 م)[35].

ما الغرض من كتاب سيبويه ؟ طالما أن اللغة **جزء من خلق الله** واللغة العربية هي التي اصطفاها البارئ عز وجل في خاتمة رسالاته إلى البشرية ، فيجب أن تكون **لغة تامة** ليس فيها انحراف ولا شذوذ ، ومن مهام النحوي أن يبني أدق التفاصيل في البنية اللغوية وأن يثبت أن هذه اللغة **منظومة** يستقر فيها كل عنصر في مكانه الصحيح، وأن **كل ظاهرة** فيها قابلة للتفسير[36].

1- **محتويات الكتاب** : اتبع سيبويه في عرض موضوعات كتابه إلى طريقة ترتيب تقوم على ثلاث علوم لغوية هامة، هي[37]:

أ- **المسائل النحوية** : المقطوعة المذكورة في مستهل هذا الفصل (**هذا باب علم ما الكلم من العربية + هذا باب مجاري أواخر الكلم من العربية**) مقتبسة من الجزء الخاص بـ**المقدمة** في "**الكتاب**"، وتطرق فيها سيبويه إلى المفاهيم الأساسية مثل:**أقسام الكلام** ، **وطبيعة الإعراب** ، و**مكونات الجملة**

، النحو الذي يعالج العلاقات بين مكونات الجملة ؛ أي النحو الذي يشمل معالجة العلامات الإعرابية .

ب- **علم الصرف** : ويشمل **العمليات الصرفية** و**الصرف الاشتقاقي** ؛ أي تلك التغيرات في المفردات التي لا ترتبط بالعلامات النحوية .

ج- **العمليات الصوتية** : وهي تلك العمليات التي لها علاقة بعلم الصرف ؛ أي هي تلك التي تحدد الشكل السطحي الحقيقي للمفردة .

2-**نظرية العمل** : من أهم المبتكرات التي أدخلها سيبويه هي تنظيم نظام الإعراب ، وتستأثر معالجة نهايات الكلمات بموقع متميز في بداية المقدمة ما يعكس طبيعة الابتكارات الخاصة بهذه المعالجة .لذلك قام بالتمييز المتمعن بين تلك العلامات التي تنجم عن فعل كلمة أخرى في الجملة – وهو العامل- -وتلك الكلمات التي تكون العلامة فيها ثابتة[38] ويوضحها هذا الجدول [39].

العلامة	مع العامل	من غير العامل
/أ/	نصب	فتح
/إي/	جر	كسر
/أو/	رفع	ضم
السكون	جزم	وقف

وهكذا ترتبط مكانة **الإعراب** مباشرة بالمبدأ المهم –**العمل**- ، وتوضح القاعدة الدقيقة في نظرية النحو العربي أنه لا يمكن أن يكون **هناك أكثر من عامل** يؤثر في العنصر **المعمول فيه** ، على الرغم من أن عاملا واحدا يمكن أن يعمل في أكثر من عنصر واحد في وقت واحد .وغالبا ما تصاغ ن**ظرية العمل** في اللغة العربية بصيغة مبدأ خارجي مهم آخر في النظام النحوي ، وهو **السلم الهرمي** في اللغة ، فلكل عنصر مكانته وكذلك امتيازاته الخاصة به . وتعطى جميع العناصر_سواء أكانت صوتية أم صرفية أم نحوية- مكانها الخاص بها في مقياس معين يمتد من الخفيف إلى الثقيل[40] .

إن السلم الهرمي الذي يصنعه النحوي للعناصر اللغوية ليس **ثابتا** ، ونجد ضمن المنظومة النحوية أن العلاقات بين العناصر متحركة (ديناميكية) وخاضعة للتعديل والتغيير . وقد طور النحويون مصطلحات مستفيضة بتوضيح **المكان والدور والموقع والوظيفة والدرجة والحالة والفئة والفئة الخاصة بالعناصر ضمن المنظومة** ،وبفضل هذه المصطلحات استطاع النحويون أن يحددوا تحت أي من الظروف يمكن لعنصر ما أن يحل محل عنصر آخر ،أي متى يمكن استخدام ذلك العنصر بوظيفة نحوية تعود لعنصر آخر ، وعندما يكون هذا العنصر يشبه العنصر الذي يحل محله فهو إما أن يحصل على بعض من الامتيازات أو يفقدها ، وهكذا أصبح **التشابه** مبدأ مهما في تفسير النظرية النحوية[41] .

3-القياس : يطلق النحاة على **المقارنة** بين ما كانت العناصر المختلفة ضمن المنظومة مصطلح "**القياس** "، وهو مشتق من الفعل "**قاس**" ويترجم إلى اللغة الإنجليزية بمصطلح "**التناظر**" أو "**قياس التمثيل**" . مع ذلك ، فإن القياس الذي يقصده النحويون العرب يمثل مفهوما **مختلفا تماما** : إذ هو **طريقة لشرح الانحرافات الواضحة عن القواعد في ظواهر معينة** وذلك بالإشارة إلى التشابه بينها وبين ظواهر أخرى . وتكون النتيجة **زيادة في الانتظام** بسبب تطبيق القواعد على أكبر عدد ممكن من الظواهر[42] .

4-السماع : هو المعيار الأساسي في **الدقة اللغوية** ؛ أي ما يمكن إثباته في الاستخدام الفعلي .ويأخذ **المرتبة الأولى** ويليه القياس (المرتبة الثانية) ؛ بمعنى أنه يمكن تطبيقه فقط على الظواهر التي تقع فعلا[43] .

5-الإضمار (الحذف) : هو العلاقة بين المستوى السطحي (الإدراك) والمستوى الأساسي (التحتي) في اللغة (ما يقال وما يقصد) ؛ أي **إخفاء** العناصر و**حجب** العلاقات في الجملة ، و**استرجاعها** في العملية الإعرابية لتفسير العلاقات النحوية بين مكونات الجملة[44] .

6-المستوى الأساسي : يشار إلى المستوى الأساسي في مصطلحات النحويين غالبا كونه "**الأصل**" أو "**المعنى**" . وفي كتاب سيبويه تسمى العملية التي يربط فيها النحوية الجمل الحقيقية مع المستوى الأساسي بـ" **التمثيل**" ، ولكنها استبدلت في المصطلحات المتأخرة بمصطلح "**تقدير**" وهو بمثابة تحديد مكانة الشيء ، ويستخدم سيبويه في كثير من الأحيان مصطلح "**المعنى**"[45].

وختم "**كيس**" وصفه لكتاب سيبويه بأنه سيبقى مصدرا ومرجعا لجميع النحويين المتأخرين ، وأنه في هذا الفصل الذي يعد جزء من كتابه "**أعلام التقليد اللغوي**" قد ركز على الأفكار العامة وليس النواحي والمبتكرات الفنية التي قدمها النحويون في التقليد العربي ، وبذلك يكون الكتاب **الوحدة الأساسية للنظرية اللغوية العربية** .

ثـالـثا : الموازنة بين الوصفين

تجلي قراءة الوصفين العربي و الغربي(شوقي+كيس) مدى التقارب والتقاطع الكبيرين في إتباع نفس الخطوات في الوصف ، بالرغم من الثقافتين المتباينتين ، ومن المصنفين المختلفين من حيث الموضوعات ، ويمكننا إجمال ذلك في الجدول الآتي :

	الرؤية العربية : شوقي ضيف	**الرؤية الغربية : كيس فيرستيج**
عنوان المصنف	المدارس النحوية	أعلام الفكر اللغوي –التقليد اللغوي العربي -
موضوع المصنف	أعلام المدارس النحوية	أعلام الفكر النحوي العربي
في المقدمة	تخصيص فقرة للحديث عن سيبويه	أغلب المقدمة حول سيبويه
الجزء المخصص لسيبويه	الفصل الثالث من القسم الأول	الفصل الثالث من الكتاب

نقاط الوصف	*تعريف مختصر لحياة سيبويه. *شهرة كتابه وأهميته. *خلو الكتاب من مقدمة وخاتمة. *أقسام الكتاب (نحو/ صرف/ الصوت). *مرتكزات المادة النحوية : -التعريفات. -العوامل والمعمولات. -السماع والتعليل والقياس.	*نبذة عن حياة سيبويه . *قيمة الكتاب التاريخية في لغة العرب. *البابان الأول والثاني هما مقدمة الكتاب. *ترتيب المسائل (نحو /صرف /صوت). *مبادئ النظرية النحوية عند سيبويه : -نظرية العمل. -القياس والسماع. -الإضمار. -المعنى والمستوى الأساسي .
المنهج	*تحليلي. *عقلي.	*تفسيري.
الخاتمة	الإشادة بصنيع سيبويه المنطقي التعليمي في رسم أصول العربية وسن قواعدها الإعرابية والصرفية.	الجزم بديمومة الصدارة لمصدر النحو العربي "الكتاب" عبر جميع العصور.

بالرغم من ذلك تجد الدراسة نفسها ترجح التوصيف العربي لشوقي ضيف ونظرته المتفحصة ،والمتعمقة ،والثاقبة ،لما فيه من استفاضة في الشرح ، ودقة في المصطلحات ،واستطراد في التمثيل والتعقيب ،وفنية الأسلوب ، وعنصر التشويق بصنيع إمام النحوي سيبويه .ولا نلغي مجهود كيس الذي حاول أن يضع المباحث السيبويهية في إطار علم اللغة المعاصر ، واعترافه بأنه وجه اهتمامه إلى الأفكار العامة فقط دون غيرها خير دليل على أن ما قدمه لا يزال يحتاج إلى توسيع وإسهاب من متخصص متضلع ، وملم بخبايا وأسرار اللغة العربية كمؤلف "**الكتاب**" .

خـاتمة :

في نهاية هذا الوصف المزدوج نجد أن الأصوات التي نادت بمكانة "**الكتاب**" وقيمته المعرفية ما زال صداها يتردد إلى عصرنا، والكتابات والبحوث التي أقيمت حوله مازالت متواصلة ومفتوحة المجال . والقراءة الواصفة بالمنظور العربي تؤكد نحويته ودوره في تأصيل قوانين اللغة العربية ، في حين القراءة الواصفة في سياق الراهن اللساني تثبت مواكبة الفكر اللغوي السيبويهي لمستجدات علم اللغة العالمي المعاصر ، وربما يتجاوزها إن وجد من الباحثين من يقف على آرائه وأفكاره بأسس منهجية متطورة.

5. الهوامش:

[1] - إبراهيم أنيس ، الأصوات اللغوية ، مكتبة الأنجلومصرية ، القاهرة ، ط 4 ، 1971 م، ص 106.

[2] - ينظر: محمود أحمد نحلة ، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ط1 ،2011 م ، ص 207،208.

[3] - شوقي ضيف ، المدارس النحوية ، دار المعارف ، القاهرة ، ط8 ، 1968 م ، ص 06.

[4] - ينظر: شوقي ضيف ، المدارس النحوية ، ص 57،58.

[5] - ينظر: نفسه ، ص 58،59.

[6] - ينظر: شوقي ضيف ، المدارس النحوية ، ص 59،60.

[7] - ينظر: نفسه ، ص 61.

[8] - شوقي ضيف ، المدارس النحوية ، ص 63،64.

[9] - الكتاب ، ج 1، ص 2.

[10] - نفسه ، ج2 ، ص 105.

[11] - المدارس النحوية ، ص 64.

[12] - الكتاب ، ج2 ، ص 105.

[13] - نفسه .

[14] - المدارس النحوية ، ص 65.

[15] - نفسه ، ص 74.

[16] - المدارس النحوية ، ص 80.

[17] - نفسه .

[18] - نفسه ، ص 82،83.

[19] - نفسه ، ص 86.

[20] - نفسه ، ص 87.

[21] - المدارس النحوية ، ص 89،90.

[22] - نفسه ، ص 60.

[23] - نفسه .

[24] - نفسه ، ص 61،62.

[25] - ينظر: نفسه ، ص 58،59.

[26] - نفسه ، ص 90،91.

[27] - المدارس النحوية ، ص 92.

[28] - ابن جني ، الخصائص ، طبعة دار الكتب المصرية، ج 1 ، ص 308.

[29] - ينظر: كيس فيرستيج ، أعلام الفكر اللغوي التقليد اللغوي العربي ، ترجمة : أحمد شاكر الكلابي ،دار الكتاب الجديد المتحدة، لبنان، 2007 م ، ج3، ص 05.

[30] - نفسه .

[31] - ينظر: نفسه ، ص 6،7.

[32] - نفسه ، ص 8.

[33] - ينظر: كيس فيرستيج ، ج3 ، ص 26.

[34] - ينظر:نفسه ، ص 68.

[35] - ينظر: أعلام الفكر اللغوي ، ج 3 ، ص 70.

[36] - نفسه ، ص 73.

[37] - نفسه ، ص 73،75.

[38] - نفسه ، ص 76.

[39] - نفسه ، ص 77.

[40] - ينظر: أعلام الفكر اللغوي ، ج 3 ، ص 77.

[41] - نفسه ، ص 99.

[42] - نفسه ، ص 79 ، 80 .

[43] - ينظر: أعلام الفكر اللغوي ، ج3 ، ص 80.

[44] - نفسه ، ص 80،81.

[45] - نفسه ، ص 83.